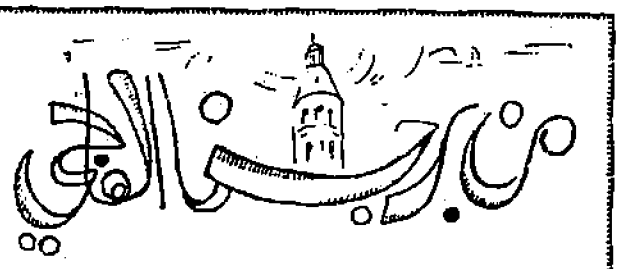

من برجنا العاجي

للأستاذ توفيق الحكيم

ما أطول حديثنا الصامت فى برجنا العاجى ! هذا البرج الذى يحرسه « تنين » الوحدة ! وما أكثر تلك الخواطر التى تمر برؤوسنا أحياناً كالطيور المارة دون أن نقتنص منها شيئاً ! هنا داخل هذا الإطار وبين هذا السياج سأحبس ما يقع منها تحت ذاكرتى . وإن خواطرى لكثيرة ، لأن أوقات عزلتى طويلة ؛ وليس لى علم بلعب النرد ولا غيره من وسائل قتل الوقت ، فالوقت عندى هو الذى يقتلنى لأنى لا أعرف كيف أقتله . ولقد حاولوا كثيراً فى صباى أن يعلمونى تلك الألعاب التى تلهى الناس عن أنفسهم فى أوقات الفراغ ، ولكنى كنت أنسى دائماً فى المساء ما علمونى إياه فى الصباح ؛ ولم ينفع فى أمرى تعليم ولا تفهيم . وخرجت من عهود الصبا دون أن أحذق لعبة أو أحجية . شىء واحد كان يلهينى ويسرنى ، وقد كان عندى بمثابة النرد والأحاجى : ذلك هو الجدل حول فكرة من الأفكار . ولكم أتعبت كثيراً من أولئك الذين كانوا يلعبون معى هذا الضرب من الشطرنج فى وقت من الأوقات ! لقد كنت أضيع عليهم نهاراً بأكمله دون أن أملّ ؛ وإن رؤوسهم لتكل فما أرحمهم ولا أرحم نفسى . إن حُب التفكير لنقمة . آه لو علم الناس كيف يعيش الأدباء ورجال الفكر ؟ ! إذن فليعلموا أن القدر يوم دفع الأدباء إلى الوجود صاح فيهم ساخراً : «اذهبوا فإن لكم الفكر ، ولكن ...»

ولم يتم كلامه وابتسم ابتسامة هى أبلغ من التعبير

نعم . مامن أديب أو مفكر إلا أدرك أخيراً بعد أن قطع شوطاً من الحياة أن شيئاً آخر ربما كان أجدى عليه من الفكر قد سُلب منه إلى الأبد ! إنّا نحسد أحياناً بقية الناس . وإنى لأتصور القدر وهو يشيع الآخرين إلى باب الوجود فيقول لهم : « اذهبوا فإن لكم الحياة ... ولكن ... »

أجل إنه يبتسم لهم كذلك عين ابتسامته الساخرة ، ولكن هؤلاء الناس لا يفهمون مطلقاً أن القدر قد سلبهم شيئاً . وهنا الفرق بيننا وبين بقية الناس : إننا نحن رجال الفكر ندرك تمام الإدراك ما سُرق منا وما فقدناه ؛ أما الآخرون فلا يعلمون . وهذا سر عذابنا نحن

والآن وقد تكشفت لنا حياتنا الفكرية عن برج مرتفع لاخروج لنا منه ؛ برج يملؤه الكون ولا نسمع فيه غير صدى أصواتنا الضائعة ؛ فلتتكلم إذن بين تلك الجدران . فإن رجع الصدى يؤنس على الأقل وحشتنا

توفيق الحكيم

وتتابعت الأحداث حتى كانت وقعة مرج دابق فى رجب سنة ٩٢٢ قبل وقعة جالدران بسنين ثلاث . وتصورت سليما يحرز نصراً بعد آخر ويطوي مملكة بعد مملكة بجنده وعدده ، ولا سيما هذه المدافع التى لم يتسلح بها محاربوه

وعدت أتذكر ما أعقبت عداوة سليم وإسماعيل من عداوة بين المسلمين ، وما أثارا من ضغينة بين أهل السنة والشيعة ، وما كان القتال إلا على السلطان والجاه وإنما كانت المذاهب تعلة

ثم تمادت الفكر وتوالت الذكر فأخذت أقيس الرجال الثلاثة واحداً بآخر ، وأتذكر ما كان منهم فى السياسة والعلم والأدب . وقلت : هؤلاء الثلاثة الذين سيطروا على وسط البلاد الاسلامية كانوا يمثلون ثقافة الأمراء المسلمين . وفيما أثر عن ثلاثتهم من شعر نماذج من أدب أمرائنا فى القرن العاشر الهجرى . وهممت أن أكتب إليك فى هذا ياصاحب الرسالة ثم تذكرت أنى أصف آثاراً فى متحف ، وأن الكلام على قائصوه وإسماعيل وسليم جدير أن يستأثر بمقال أو أكثر

ولعلى أجد لذلك فرصة بعد

عبد الوهاب عزام